الباب الثالث

الإنسان

يعتبر الإسلام الإنسان أكمل مخلوق على الأرض وأغلاه. إذ فضله ربه على سائر خلقه، ووصله بذاته، ووظفه في ملكه، وكلفه بطاعته، وبعمارة جزء من ملكه وهو الأرض. ووهبه العقل والعلم، وسخر له ما في السماوات والأرض، وكلمه وأعطاه من كل ما سأل. وأعدَّ له إذا قام بواجبه الجنان الواسعة ووهبه الخلود والسعادة. وأحبه وأغدق عليه من النعم ما لا يحصى **﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعمة الله لا تُحصوها﴾**[1] وأطلعه على قوانين الأرض والسماء وسمح له بالاستفادة منها ومما حولها.

فقد قال سبحانه: **﴿لَقَد خَلقنا الإنسانَ في أحْسنِ تَقويْمٍ﴾**[2] فلا تجد في المخلوقات أجمل منه ولا أكمل. وأسجد له الملائكة سجود تكريم وخدمة **﴿وَإذْ قلنا لملائكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسجَدُوا﴾**[3]. وأعطاه الحرية الكاملة يفعل ما يشاء فقال سبحانه **﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً فَلِنفسِهِ وَمَنْ أساءَ فَعَليها﴾**[4].

---

(١) ابراهيم ٣٤.
(٢) التين ٤.
(٣) البقرة ٣٤.
(٤) فصلت ٤٦.

وبين لنا سبحانه من أين خُلِقَ وكيف خلق وأين وكيف تم تكوينه فقال سبحانه: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنتُم في ريبٍ مِنَ البعثِ فإنَّا خَلقناكُمْ من ترابٍ ثُمَّ من نُطفةٍ ثُم من عَلَقةٍ ثم مِن مضغةٍ مخلقة وَغير مُخلَّقةٍ لنبيِّن لَكُمْ. وَنُقرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسمى، ثم نُخرجكُمْ طفلاً، ثُم لتبلُغوا أشُدَّكُم وَمنكُمْ مَن يُتوفى وَمنكمْ مَن يُردُّ إلى أرذلِ العمُر لكيلا يَعلم مِنَ بَعدِ عِلمٍ شيئاً**﴾[1] وهذا ما اكتشفه العلم الحديث وأصبح علماً مستقلاً يسمى علم الجنين.

فالإنسان خلق من عناصر التراب المختلفة أضيف إليها الماء فكل ما بجسد الإنسان من معادن وأشباه المعادن أخذ من الأرض، تدخل الجسم بالطعام المختلف ويذهب بعضها إلى خصية الإنسان التي تضع فيها بذرة الإنسان (النطفة). وهي سائل لزج فيه مجموعة من الأحياء تعد بالملايين وتسمى (الحويونات المنوية) تخرج من الخصيتين وتخزن في حويصلين صغيرين يستقران في منتصف حوضة الرجل أي في منتصف المسافة الموجودة ما بين الصلب وأسفل جدار البطن كما قال الله سبحانه ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب**﴾[2]، فالصلب معروف والترائب هي أعصاب موجودة في جلد البطن تحت السرَّة.

والنطفة الواحدة حويوين واحد منها فقط يتشكل منه الولد

(١) الحج ٥.
(٢) الطارق ٥ - ٧.

وباقي الحويونيات تهمل، وهذا ما ذكره رسول الله ﷺ. إذ قال (ليس من كل الماء يكون الولد)[1]. وهذا الحويوين صغير جداً لا يرى إلا بالمجهر له رأس هو الخليلة وله ذنب يتحرك به سيراً للأمام بسرعة ٦ مليمترات في الساعة تم يدخل بيضة المرأة ويتخلى عن ذنبه ويندمج بها مكوناً جسماً واحداً هو أصل الإنسان وهذه الخليلة منها نواة صغيرة فيها شريط دقيق معلق فيه (٣٠) ألف جسيم تسمى الجينات وفيه صفات الوالد والوالدة وخريطة الإنسان الذي سيتكون وكل ما يتعلق في تكوينه وأعضائه كما يشرف على ما يزيد عن (٨) آلاف معمل تصنع ما يلزم لتكوين الإنسان من مواد. وتتصل هذه المعامل مع الشريط بأشرطة كالتلفون. كل ذلك في هذا الحويوين الصغير.

يندمج الحويوين ببيضة المرأة ثم ينزل إلى جوف الرحم الكائن في حوضة المرأة ويأخذ بالتكاثر بسرعة مذهلة فيصبح خليتين ثم أربعة ثم ثمانية وهكذا مكوناً جسماً صغيراً متطاولاً كالعلقة وتكثر خلاياها ثم تصطف هذه الخلايا ثلاثة ورقات أو صفوف تكون فيما بعد أعضاء الإنسان. فكل ورقه تصنع أجهزة خاصة كالعَين والأذن والمخ والعظام وسواها وتكبر هذه العلقة وتتكور فتصبح كالمضغة وتكبر هذه المضغة وتتحول إلى ما يشبه الإنسان إذ تتخلق فيها بعض الأعضاء التي يمكن أن نراها كالرأس والأطراف أي تصبح العلقة مخلقة، ثم

(١) الحاكم.

تتكامل وتكبر وتصبح جنيناً كاملاً كل ذلك يحدث في ظلمات ثلاث ظلمة جوف البطن والحوض وظلمة الرحم وضمن غشاء كالكيس المملوء بالماء ﴿ يخلقُكُمْ في بُطُونِ أُمهاتِكُمْ خلقاً من بعدِ خلقٍ في ظُلماتٍ ثلاثٍ﴾[1] كل ذلك يجده في مكان ضيق لا يستوعب أصبعاً واحداً، ولكنه في أمكن مكان في الجسم فهو في جوف عضلة الرحم، محاط بإطار عظمي كثيف ومتين ومغلف بالجلد كما هو مغطوس في ماء يقيه الصدمات، ﴿أَلَمْ نَخلُقْكُمْ من ماءٍ مَهينٍ فَجعلْناهُ في قَرارٍ مَكينٍ إلى قَدَرٍ مَعلومٍ فَقدرْنا فَنعم القادِرون﴾[2]، يبقيه ربه في هذا القرار المكين إلى وقت معلوم إذ يأمر ربنا الرحم وما حولها من العضلات أن تضغط على الجنين بصورةٍ لطيفة ومتناوبة لئلا يوذى حتى يخرج إلى الدنيا بصورة تدريجية. يخرج شاء أو أبى ولا دخل لمخلوقٍ في ذلك؛ ﴿وَاللهُ أخرجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعلمونَ شيئاً﴾ [3] يخرج الجنين من فوهة الرحم التي كان يبلغ قطرها ٥ مليمتر فتتسع حتى تصل إلى ١٣٥ مليمتر وتتوسع حوضة المرأة وما حولها حتى يخرج الطفل بسهولة ﴿مِنْ نُطفةٍ خَلَقهُ فقدرهُ ثُمَّ السَّبيلَ يسَّرهُ﴾[4].

وهكذا بدأ علم الجنين في الإسلام قبل (١٤٠٠) سنة وقد بين ربنا أصل الجنين وتكوينه وولادته بصورةٍ علمية لم يعرفها البشر إلا بعد ألف سنة من نزول القرآن.

---

(١) الزمر ٦.
(٢) المرسلات ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣.
(٣) النحل ٧٨.
(٤) عبس ١٩، ٢٠.

يولد الطفل فانقطع غذاؤه وهواؤه عن دم أمه، فأمر ربنا صدره أن يعمل فوراً فيتنفس الطفل. وأوجد غذاءه في ثديي أمه لبناً لذيذاً معقماً فيه طعامه وشرابه. صنعه ربه من طعام الأم المهضوم في أمعائها ومن دمها، وينقله دمها إلى الثديين **﴿مِنْ بَينِ فرثٍ وَدَمٍ لَّبناً خالِصاً سَائِغاً للشّاربين﴾**[1].

ومن العجيب أن كثافة المواد الغذائية في حليب الطفل وكميته تزداد يومياً كلما نما الطفل وازداد عمره لذا كان لبن الأم أفضل غذاء للولد ولا يعدله أي لبن لا الحيواني ولا الاصطناعي حتى ولا لبن امرأة مرضعة أخرى وقد قال ﷺ: «ليس للصبي لبن خيراً من لبن أمه»[2].

وحض الإسلام على الرضاع حولين كاملين فقال سبحانه: **﴿والوالِدات يُرضِعنَ أوْلادهُنَّ حَولينِ كامِلينِ لمن أراد أن يُتمَّ الرضاعَة﴾**[3] وذلك لأن في حليب الأم فوق ما ذكر من وسائل تكسب الطفل مناعة ضد كثير من الأمراض، كما يتكامل نموه على أكمل وجه. وإذا لم تستطع الوالدة، أو لم ترد أن ترضع ولدها فعلى الوالد أن يؤمن رضاعه.

وحفظ ربنا حياة الطفل منذ بدء خلقه وهو في بطن أمه وما بعد ذلك فحرَّم الإجهاض وحرم قتل الطفل ووأده **﴿وَلا تَقتُلوا أولادَكُمْ خَشيةَ إمْلاقٍ نَحنُ نَرزُقُهمْ وَإيَّاكم﴾**[4]، وأيضاً

---

(١) النحل ٦٦.
(٢) الرضا.
(٣) البقرة ٢٣٣.
(٤) الاسراء ٣١.

تكفل برزق الطفل وأبويه. وقد جعل قتلهم كقتل أي رجل أو امرأة عقوبتها الخلود في جهنم مع عقوبة الدنيا ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغيْرِ نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنَّما قَتَل النَّاسَ جميعاً**﴾[1] وقد كان العرب يئدون بناتهم أي يدفنونهن وهن أحياء كما أصبح كثير من الناس في الشعوب المتمدنة كاليابان والصين وبريطانيا وسواها يقتلون أولادهم أو يهملونهم لأنهم يجدونهم عالة عليهم.

وفرض الإسلام العناية بالولد من إعالة وتربيةٍ وملاطفة وجعلها فرضاً على الوالدين وجعل إهمال الولد والإساءة إليه من الذنوب الكبيرة. فقال ﷺ: «يلزم الوالدين من عقوقِ الولد ما يلزم الولد من العقوق لهما»[2].

وأوجب على الوالد أن «تحسن اسمه وأدبه وضعه موضعاً حسناً»[3] أي تسميه باسم جميل وتربيه التربية الصالحة وتوجد له صنعة أو عملاً شريفاً.

---

(١) المائدة ٣٢.

(٢) ابن بابويه.

(٣) الطوسي.

الفصل الأول

تربية الإنسان

يكبر الطفل ويصبح صبياً وهنا تبدأ تربيته ليكون مسلماً مؤمناً، وعنصر خيرٍ لنفسه ولأهله وللمسلمين بل للبشرية كافة. والمربي الأول هو الأم ثم الأب ثم المدرسة ثم المحيط.

وقد طلب الإسلام أن يربى الولد التربية المثلى ليكون الإنسان المثالي الشبيه بالرسول الكريم مربي الأمم. وهنا تتجلى عظمة الإسلام في ذلك. إذ يطلب أن يربى الطفل على عقيدة سليمة صحيحة لا خرافة فيها ولا ظن، وعلى خلق فاضل، وعلم ديني كامل. فيطيع ربه الإله الأحد والملك العظيم فلا يعبد سواه، ويخالق الناس بخلق حسن، ويحافظ على الآداب العامة فيحفظ حقوق الوالدين والأقربين والجار والضيف، ويعامل الناس بالصدق والأمانة ويفعل الخير ويقوم بما فرض الله عليه ورسولُهُ.

الفصل الثاني

العقيدة

هي لا إله إلا الله محمد رسول الله. أي هي معرفة الله سبحانه بصفاته الكاملة وأنه خالق كل شيء وقائم بكل شيء ولا حركة ولا سكون إلا بمشيئته، وأنه يرى الظاهر والباطن ويسمع، ويجازي الخير بالخير والشرَّ بالعقاب ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أينما كُنتم﴾[1]، وأنه يسجل علينا أعمالنا وما تكن صدورنا، لذا أوجد فينا الضمير.

فالمسلم يحاسب نفسه ويخشى ربَّه فيستقيم عمله وتحسن نيته وضميره. والمسلم لا يعبد إلا الله ولا يتبع مبدأً غير الإسلام ﴿وَمَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبلَ مِنهُ﴾[2]، ولا يتبع غير سبيل الإسلام وقواعد الإسلام ﴿وَأَنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبعوهُ ولا تَتبِعُوا السُّبُل فتفرَّق بِكمْ عن سَبيلِهِ﴾[3].

والإسلام وصل الإنسان بربه صلة دائمة مما جعله في سعادة دائمة، وعرَّفه أن الله سبحانه يريد به الخير وليس عدواً له، وهو أنفع له من كل أحد حتى من والديه ومن نفسه بالذات كما قال له: «يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت

(١) الحديد ٤.

(٢) آل عمران ٨٥.

(٣) الأنعام ١٥٣.

برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أنفع لك من كل شيء».

كما قال تعالى: ﴿وَما خَلقْتُ الجنَّ والإنْس إلاَّ ليعبُدونِ﴾[1] أي أنت أيها الإنسان موظف عند ربك تنفذ أوامره وهو يتكفل برزقك وقضاء حوائجك، وهو محبٌ لك. وقد أعد لك الجنة والخلود فيها.

وأن الله سبحانه يدفع عنك السوء ويدافع عنك ﴿إنَّ الله يُدافعُ عَن الَّذين آمنوا﴾[2] كما إذا أصابتك مصيبة أو أذى ولم تستطع دفعه فاستعذ بالله منه، واسأله وادعه فقد تكفل بالاستجابة. حتى أنه سبحانه هيأ لك ما تريد ثم ألهمك الدعاء وذلك لفرط كرمه وإحسانه ﴿وَقال رَبُّكُم ادعوني أستجبْ لَكُمْ﴾[3].

والله مع الإنسان في كل وقت وفي كل مكان ﴿وَهُو مَعكُمْ أينما كُنتُمْ﴾[4]. والمسلم يولد فيسمع أول ما يسمع من الكلام حين يخرج من بطن أمه هو كلمة (الله أكبر) كما أمر بذلك رسول الله ﷺ: «من وُلد له مولود فليؤذّن في أذنه اليمنى بأذان

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) الحج ٣٨.

(٣) غافر ٦٠.

(٤) الحديد ٤.

الصلاة، ولْيقم في أذنه اليسرى». ويظل يسمعها كل يوم خمس مرات طيلة حياته، حتى لا يصاب بدهشةٍ إذا رأى أي شيء عظيم فإنه علم أن الله أكبر من كل شيء. وذلك بعكس باقي الأديان التي تصور معبودها على هيئة إنسان أو حيوان أو جماد **﴿وَما قَدروا الله حَقَّ قَدرِهِ وَالأرضُ جَميعاً قبضتُهُ يَومَ القِيامَةِ والسَّماواتُ مَطوياتٌ بِيمِينِه﴾**[1].

(١) الزمر ٦٧.

الفصل الثالث

الأخلاق

يطلب الإسلام من الإنسان حسن الخلق «أكثر ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[1]، وأول الأخلاق الصدق «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرِّ وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1].

ثم الاستقامة في المعاملة ﴿**فاستقِمْ كما أُمِرتَ**﴾[2]، ثم الحياء «الحياء من الإيمان»[3]، وفعل الخير وهو فرض فرضه ربنا ﴿**وَافعلُوا الخير لَعلّكُمْ تُفلحونَ**﴾[4] ثم الصبر على المصيبة وعلى البلاء وعلى الطاعة فـ «الصبر نصف الإيمان» وبين أن أشد الصبر حين وقوع المصيبة «الصبر عند أول الصدمة». وأن يكون قلب المسلم سليماً خالياً من الغش

---

(١) أحمد.

(٢) هود ١١٢.

(٣) البخاري.

(٤) الحج ٧٧.

والحسد والمكر والخيانة والخديعة وذلك لأنه ﴿يَوْمَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى الله بِقلبٍ سَليمٍ﴾[1].

وأن يكون للإنسان أربع أوقات في كل يوم (ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب). (وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه) من الكذب والغيبة والنميمة وسواها. بل (قل الحق وان كان مرّاً) و«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[2].

وأوجب على كل مسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو يعدل الجهاد في سبيل الله فإن أصيب بسبب ذلك كان شهيداً (الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شهيد).

فيا أيها المسلم (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك) أي استفد من أيام العمر ومن المال الذي بين يديك واستعملهما في الخير فكلاهما يمضيان هباءً إذا لم تستفد منهما. وحرم الإسلام سوء الخلق والمعاملة والقسوة وفرض الرحمة (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).

---

(١) الشعراء ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) كل أحاديث هذا الباب من كتاب قبس للمؤلف.

وحرم الظلم فـ (الظلم ظلمات يوم القيامة). وحرم التسويف لأن (التسويف شعار الشيطان يلقيه في قلوب المؤمنين) فقد يصاب به الإنسان فيؤخر الطاعة كالصلاة والزكاة أو يؤخر التوبة أو الحج فتضيع منه وقد يموت قبل أن يفعل ما أمر به فيردى.

وحرم الإسلام اليأس بكل أشكاله فالمؤمن يرجو رحمة ربه ومعونته وغوثه مهما ناله من ضيق أو بلاء فـ ﴿لا تيأسوا مِنْ رَّوْحِ الله إنَّهُ لايَيأسُ مِنْ رَّوْحِ الله إلاَّ القَوْمُ الكافِرون﴾[1].

---

(١) يوسف ٨٧.

الفصل الرابع

المرأة

كانت المرأة قبل الإسلام متاعاً كباقي الأمتعة أو الأنعام، ليس لها من الحقوق شيء. تُورَثُ ولا ترث، وتوئدُ (تدفن حية)، ويزوجها وليها أو أبوها أو ابنها شاءت أو أبت؛ وتعتبر يوم ولادتها كارثة على ذويها.

ولما جاء الإسلام أعطاها حقوقها كاملة كإنسان عادي وجعلها كالرجل. فقال ﷺ: «النساء شقائق الرجال»[1] وساوى بينها وبين الرجل وأقام بينهما علاقة طيبة، وتعاوناً وتكافلاً واحتراماً ومحبة. فجعل للأم حق البرِّ والاحترام والإنفاق عليها، وجعل عقوقها من أكبر الذنوب وقال ﷺ عنها وعن الأب لرجل: «هما جنتك ونارك»[2] أي برهما يدخل الجنة وعقوقهما يدخل النار.

وجعل للبنات نفس الحقوق «ما من مسلم تدرك عنده ابنتان فيحسن صحبتهما إلا أدخلتاه الجنة»[3].

وساوى بينهما وبين الرجل في الجزاء الدنيوي والأخروي

---

(١) أبو داود.

(٢) ابن ماجه.

(٣) البخاري.

﴿مَنْ عمل صالحاً مِنْ ذَكرٍ أو أُنْثى وَهُـو مؤمِنٌ فلنحيينَّهُ حَياةً طيبة ولنجزيَنَّهُمْ أجْرهُمْ بأحسنِ ما كانوا يَعملون﴾[1].

حض الرجل على الزواج لتتأمن حاجتها وكفايتها فقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»[2] وجعل زواجها بموافقتها دون إكراه «لا تنكح الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن»[3].

وعلى المـرأة تحضير الـطعـام والغسيل وسواه وخدمة أولادها وتربيتهم وخدمة الزوج وجعل في ذلك الثواب العظيم «خدمتك زوجك صدقة»[4] وعلى الرجل إعالتهم والإنفاق عليهم «ما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة...»[5]، وأن يعاملها بالود واللطف والمحبة ﴿وِمنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُم أزواجاً لتسكنوا إليها وَجَعَـل بَينكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمـةً إنَّ في ذَلـكَ لآيـاتٍ لِقـوْمٍ يَتفكَّرونْ﴾[6]، فإن فقد الزوج جعل الإسلام كفالتها على ذويها.

ومنع الطلاق إلا للضرورة «لا تطلق النساء إلا من ريبة»[7] وجعله بغيضاً إلى الله «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[8].

---

(١) النحل ٩٧.
(٢) البخاري.
(٣) الترمذي.
(٤) الديلمي.
(٥) البخاري.
(٦) الروم ٢٠.
(٧) البزار.
(٨) أبوداود.

ونهى عن العزل إلا بموافقتها «نهى رسول الله عن العزل عن الحرَّة إلا بإذنها»[1].

وحرم النظر إليها وتكليمها إلا للمحارم أو للضرورة أي حفظ كرامتها وعفتها. وحرم الزنى والشذوذ الجنسي بأشكاله حفظاً لها ولمصلحتها.

وأعطاها حقها من الميراث رغم كفالة الزوج والأهل لها. وكانت من قبل لا ثروة لها فجعل ثروتها ملكاً لها تتصرف بها كيف شاءت.

وأباح لها العلم وفرض العلم الديني عليها كما أباح لها التجارة والصناعة. وأوجب على الرجل حفظها والدفاع عنها والإخلاص لها.

وهكذا كانت ولا تزال تتمتع بميزات لا تزال الحضارة والرقي مقصرة عنها.

---

(١) أحمد.

الفصل الخامس

الأسرة والأرحام والخدم

الأسرة في الإسلام مثالية بالنسبة لأي أسرة في العالم وفي كل عصر. ولكل فرد منها حقه الكامل من عيش واحترام وبرٍّ ومحبة وحنان وتعاون. حرم الإسلام أن يبغي أحد على أحد، وبين لكل فرد واجباته ليقوم بها تجاه الأسرة فيتأمن ترابطها وعيشها الرغد.

فجعل الأخ الأكبر بمنزلة الوالد في الاحترام والطاعة بين إخوته وأوجب عليه رعايتهم والعناية بهم حين فقد الأب وحتى كفالة المحتاجين منهم (الأكبر من الإخوة بمنزلة الأب)[1]، وكذا العم (إن عم الرجل صنو أبيه)[2]، وكذا (الخالة بمنزلة الأم)[3].

وامتد حسن المعاملة إلى الأقربين (أي الأرحام) كابن العم وابن الخالة أو الخال وحتى لأكثر من ذلك. فبر الأرحام فرض عين على المسلم ولو بالسلام والبشر عند اللقاء، وعاقب

---

(١) البيهقي.

(٢) الدارقطني.

(٣) الترمذي.

على قطع الأرحام بشدة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسيتم إنْ تَولَّيتُمْ أنْ تُفسدوا في الأرضِ وَتقطِّعوا أرْحامكُمْ أُوْلئِكَ الَّذين لَعَنَهُم الله فأصمَّهُمْ وأعْمى أبصارَهُمْ﴾(١). وألزم الإحسان إليهم وتفضيلهم في الزكاة والصدقات على سواهم.

وامتد حسن المعاملة أيضاً إلى الجار مهما كان شأنه ولو كان غير مسلم «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٢).

ولم يغفل الإسلام الخدم والعبيد «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٣).

وحض على عتق العبيد وأوجب له مناسبات كثيرة ككفارة القتل خطأً وإفطارٍ في رمضان عمداً وكفارة يمين، حتى صفع وجه العبد يوجب عتقه، وأثاب على العتق كما أباح المكاتبة وألزمها (أي يعتق العبد إذا تكفل بدفع ثمن عتقه تدريجياً) وجعل في ذلك حقاً له من مال الزكاة.

وقد جمع القرآن كل ذلك بآية واحدة ﴿وَاعْبُدُوا الله وَلا تُشْرِكوا به شَيْئاً، وبالوالِدين إحْساناً، وَبذي القُربَى وَاليتامَى

---

(١) محمد ٢٢، ٢٣.

(٢) البخاري.

(٣) البخاري.

وَالمساكِيْنَ والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُب والصَّاحِب بالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيل وَمَا مَلَكت أيمانكُمْ﴾[1].

هذا بعض ما بالإسلام من القواعد التي بنى عليها الأسرة لتكون اللبنة القوية الصالحة المتماسكة في الصرح الإسلامي. وهذا هو الجو العبق الجميل في حياة الأسرةِ المسلمة.

---

(١) النساء ٣٦.

الفصل السادس

اليتيم

كان اليتيم قبل الإسلام كالعبد يستخدم ويهان ويحرم حقه من الكفالة والرعاية والحنان، ولا ميراث له. فجاء الإسلام ففرض كفالته على أقرب الناس إليه فإن لم يكن له قرابة فالحكومة والشعب المسلم هما الكفيل. وأثاب على الإحسان إليه فقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين. وضم ما بين إصبعيه السبابة والوسطى»[1].

وبين رسول الله ﷺ مدى الإحسان إلى اليتيم بقوله: «والذي بعثني بالحق لا يعذب الله من رحم اليتيم ولان له في الكلام، ورحم يتمه وضعفه»[2].

وعاقب المسيء إلى اليتيم والآكل لماله ﴿**إِنَّ الَّذين يأكُلون أمْوال اليتامَى ظُلماً إنَّما يأكُلُون في بُطونِهِمْ ناراً. وسيصْلونَ سَعيراً**﴾[3]. بل طلب الاتجار بماله لتنميته.

فإذا بلغ رشده وكان عاقلاً أعطي ماله كاملاً ﴿**فإنْ آنستُمْ**

---

(١) البخاري.

(٢) الطبراني.

(٣) النساء ١٠.

مُنهُمْ رُشداً فادْفعُوا إليهم أموالَهُمْ، ولا تأكُلُوها إسْرافاً وَبداراً أنْ يَكْبَروا﴾[1]، وحرم قهره والإساءة إليه ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾[2].

ويكفي اليتيم شرفاً ومكانة أن رسوله الحبيب كان يتيماً.

---

(١) النساء ٦.

(٢) الضحى ٩.

الفصل السابع

آداب المجتمع

«المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1] لذا جعل الإسلام الإنسان مخالطاً لمن حوله وعنصر إلفةٍ وخيرٍ ولطف وإيناس.

فالجار له في الإسلام حقوق على جاره بينها رسول الله ﷺ بقوله: «حق الجار إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن افتقر أقرضته، وإن أعور سترته، وإن أصابه خيرٌ هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسدَّ عليه الريح، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له منها»[2].

وجعل الجار كأنه من أهل البيت، وهو أحق من غيره بالتكريم ولو كان غير مسلم فهو وصية جبريل عليه السلام للرسول ﷺ ولنا، وقد ميزه الإسلام عن سواه حتى في البيع والشراء فإذا أراد أحد أن يبيع بيته كان الجار أحق من غيره بشرائه فـ «الجار أحق بشفعته»[3].

وأوصى الإسلام بالصديق فَعَلى المسلم أن لا يصادق إلا ذي الخلق الإسلامي الحسن، لأن الرسول ﷺ يقول:

---

(١) وما بعده من الاحاديث النبوية اخذ من قبس للمؤلف.

«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» و «المؤمن مرآة المؤمن، إذا رأى فيه عيباً أصلحه»، وعليه أن يعامله كالأخ الودود فـ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» حتى أن «تبسمك في وجه أخيك صدقة» تثابُ عليها.

وللصديق على الصديق حقوق وهي «الإجلال له في عينه، والود له في صدره والمواساة له في ماله، وأن يحرِّم غيبته، وأن يعوده في مرضه، وأن يشيع جنازته، وأن لا يقول فيه بعد موته إلا خيراً».

أما معاملة باقي المسلمين فعلى المرء أن يبدأهم بالسلام، ويرد عليهم السلام فـ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه» ﴿**إنما المؤمنُونَ إخوة**﴾[1] و «عونك الضعيف من أفضل الصدقة» و «انصر أخاك ظالِماً أو مظلوماً. إن كان مظلوماً فانصُره، وإن كان ظالماً فاردده» ثم «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً» و «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أتى عليكم معروفاً فكافئُوه، ومن استجاركم فأجيروه».

وعلى المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة، وقبولها من سواه ﴿**والعصر إنَّ الإنْسانَ لفيْ خُسر إلاَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات وتواصَوْا بالحقِّ وتَواصوْا بالصَّبر**﴾[2].

---

(١) الحجرات ١٠.

(٢) العصر.

وقال أحدهم «يا رسول الله أوصني! فقال: هل تملك لسانك؟ فقال: وماذا أملك إذا لم أملك لساني؟ قال: هل تملك يدك؟ قال: وماذا أملك اذا لم أملك يدي؟ فقال ﷺ: فلا تقل إلا معروفاً ولا تبسط يدك إلا إلى الخير».

هذا بعض ما في المجتمع الإسلامي. حتى أن الحيوانات كان لها نصيب من الرحمة وحسن المعاملة. فحرم الإسلام أن يحمل الحيوان فوق طاقته، أو أن يميته صبراً «دون طعام أو شراب» و«نهى عن التحريش بالبهائم» فإن «في كل كبد رطبة أجر» في معاملتها بالحسنى و«لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً». أي لا يجعلوا الحيوان هدفاً للتدريب على السلاح. و«إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

ولم ينقص الإسلام شيئاً من الآداب في البيت ولا في خارجه حتى ولا في الطريق. فقد قال ﷺ: «إياكم والجلوس في الطرقات! قالوا يارسول الله ما لنا بدٌّ من مجالسنا نتحدث فيها. قال رسول الله ﷺ: إذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وبحديث آخر إغاثة المظلوم، وإهداء السبيل.

وما أجمل وأشمل قول الله عزَّ وجلَّ **﴿يا أيُّها الّذين آمنوا لا يَسخَر قَوْمٌ مِنْ قَومٍ عَسَى أنْ يَكُونوا خَيراً مِنْهم، وَلا نساءٌ**

مِنْ نساءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيراً مِنهنَّ. ولا تَلمزوا أنْفُسكُمْ، ولا تنابزوا بالألقاب. بئسَ الاسم الفسوقُ بعد الإيمان. وَمن لم يَتبْ فأولئك همُ الظَّالمونَ﴾ (١)، و ﴿ياأيُّها الَّذينَ آمنُوا اجتنبوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إن بَعض الظَّن إثمٌ وَلا تَجسسوا وَلا يَغتب بَعضُكُمْ بَعضاً. أيُحبُّ أحـدُكم أنْ يأكُـل لَحم أخِيه ميتاً فكَرِهْتمُوهُ وَاتَّقوا الله إن الله تَوابٌ رَحيمٌ﴾(٢).

وحرم الإسلام الكبر والاعتداء والطمع والجشع واتباع الهوى فقد قال ﷺ:

«بئس العبد عبدٌ تخيل واختال ونسي الكبير المتعال
بئس العبد عبدٌ تجبَّر واعتدى ونسي الجبار الأعلى
بئس العبد عبدٌ سها ولهى ونسي المقابر والبلى
بئس العبد عبدٌ عتا وطغى ونسي المبتدأ والمنتهى
بئس العبد عبدٌ يختل الدنيا بالدين
بئس العبد عبدٌ طمع يقوده
بئس العبد عبدٌ هوى يضله
بئس العبد عبدٌ رغب يذلُّهُ»(٣).

(١، ٢) الحجرات ١١، ١٢.

(٣) الترمذي.

الفصل الثامن

الاقتصاد والعمل

العمل منبع الاقتصاد في الأمة. وهو عمل الفرد من زراعة وصناعة وتجارة وتعدين وسواها. فإن صاحَبَ العمل العلمُ والأخلاق الحسنة تضاعف الإنتاج، وحصل الربح؛ وإلا قل الإنتاج وحلت الخسارة واضطرب الاقتصاد. ﴿وَأَنْ لَيسَ لِلإنسانِ إلَّا ما سَعَى﴾[1]

يضاف إلى ذلك إشراف الدولة الرشيدة المخلصة التي تؤمن للفرد أمنه على نفسه وماله وتوجد له فرص عمل وعلم وإرشاد إلى أفضل السبل ليثمر عمله وتشجعه وتعاونه وتوجد له باب التصدير. فهي بمثابة المعلم والمعين والوالد، يراقب ولده ويسدد خطاه ويساعده.

وقد نظم الإسلام الاقتصاد الفردي والحكومي وسنَّ له قوانين هي أعظم القوانين الاقتصادية وأكثرها إنتاجاً وبركة وأسلم عاقبة؛ وكان الله عليها وعلى تنفيذها رقيباً ومحاسباً ومثيباً.

ففرض على كل فرد بالغ العلم والعمل، وأوجد له ضميراً

---

(١) النجم ٣٩.

إسلامياً وهو علمه بأن الله يراقبه دائماً بالسر والعلن ﴿وَاللهُ بما تَعملُون عَليم﴾[1]، ومجازيه بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً. وطلب منه العلم أولاً «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهو علمان علم لا بد منه وهو أن يتعلم ما فرض الله عليه وما أحل له وما حرم وعلم لا تستقيم الحياة بدونه وهو علم يعمل بموجبه من صناعة وتجارة وسواها. ثم فرض عليه العمل بقوله تعالى ﴿وقُلِ اعملوا فسيرى اللَّهُ عملكُم ورسولُه والمؤمنون﴾[2]. وطلب منه أن يتقن عمله ويحسنه «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» (يحسنه)[3]. وطلب منه أن يبكر في عمله لأن «الصبحة تمنع الرزق»[4] أي نوم الصباح وتأخير العمل. وحرَّم البطالة «البطالة تقسي القلب»[5] و«إن الله يحب العبد المحترف ومن كدَّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله»[6].

وحرم الغش «من غش فليس منا» أي ليس مسلماً.

وحض على الزراعة وجعل لها ثواباً كبيراً وجزاءً في الدنيا والآخرة. فالمزارع يفلح الأرض ويلقي البذر ويسقي بالماء أو يدعه للمطر معتقداً أن الله سبحانه هو سينبته ويثمره ﴿الله

---

(١) البقرة ٢٨٣.

(٢) التوبة ١٠٥.

(٣، ٤، ٥، ٦) أحاديث رسول الله ﷺ مأخوذة من كتاب قبس.

الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾[1] وأباح له ثلاثة أشياء تسهيلاً للزراعة وتربية المواشي «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار». وجعل له «من أحيا أرضاً ميتة فهي له» وجعل «من غرس غرساً أو زرع زرعاً فأكل منه إنسان أو سبع أو دابة أو طير فهو صدقة». وخص على الاستمرار في الزرع والعمل ولو «إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر».

وأما التجارة فـ «عليكم بالتجارة ففيها تسعة أعشار الرزق» وجعل التاجر عند الله بمنزلة عالية إذا كان أميناً صدوقاً فـ «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة».

فلا يغش ولا يكذب ولا يخدع ولا يحتكر قوت المسلمين أو ما هم بحاجة ماسَّة إليه فـ «لا يحتكر إلا خاطىء» أي مذنب. ولا يحسد أحداً ولا يوهم الناس بأساليب الخداع فـ «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً» ولا ينفِّق سلعته بالحلف الكاذب لأن «الحلف ينفق ويمحق» وعليه أن يعامل الناس باللطف والإحسان والعدل.

وحرم الله الربا والتعامل به والشهادة فيه فالمرابي كفَّار أي شديد الكفر وآثم. وقد أوعد الله المرابي بالخلود في نار

---

(١) ابراهيم ٣٢.

جهنم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيعَ وحَرَّمَ الرِّبا، فَمَنْ جاءه مَوعِظةٌ مِنْ رَبِّـه فانتهى فَلهُ ما سَلَف وأَمْـرهُ إلى الله. وَمَنْ عادَ فأولئِكَ أَصْحاب النَّار هُم فِيها خالِدُونَ﴾[1]، لأن المرابي محارب لله مجرم ضارٌ بنفسه وبالمسلمين «إذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله» والربا على اشكال متعددة كلها حرام «الربا بضع وسبعون شعبة أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمّه» فالربا يمحق المال ويبقي الذنب على صاحبه وأهل بلده.

ومن أمثال محاربة الله للمرابي أن دولاً تعد بالعشرات من مسلمين وغير مسلمين اقترضت ألوف الملايين بالربا أملاً في أن تنتعش بلادهم اقتصادياً وتنمو حضارياً وأهملوا شرع الله وتحـريمـه فكـانت النتيجة أن معظم واردات شعوبهم أصبحت لا تفي بدفع فائدة الدين وأصبحت مستعمرة اقتصادياً وسياسياً للدائنين، وأصـابها الفقر والذل والجوع والمرض والموت بالملايين سنوياً.

وحرم الإسلام الغبن أي أخذ الأرباح الغير معقولة. وحرم تطفيف المكيال والميزان ﴿وَيْلٌ للمُطفِّفين الذِيْنَ إذا اكتالوا عَلَى النَّاس يَستوفُونَ وإذا كالوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخسرُون﴾[2].

وجعل للعمال والخدم حقوقاً ومعاملة خاصة فـ «إن النبي نهى عن استئجار الأجير حتى يتبين له أجره» وقال «أعطوا

---

(١) البقرة ٢٧٥.

(٢) المطففين ١ ـ ٣.

الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه» فـ «ظلم الأجير أجره من الكبائر».

وطلب من العامل إتقان العمل وتحسينه و «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن» و «إذا قصَّر العبد في العمل ابتلاه الله بالهم».

وأوصى في الشراكة بالأمانة وجعل لها قوانين كثيرة تجب مراعاتها. ويقول رسول الله فيما يرويه عن ربه أنه قال سبحانه: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر، فإذا خانه خرجت من بينهما» فوقعت الخسارة والمتاعب.

وكرَّه الإسلام الدين فقال ﷺ: «إياكم والدين فإنه همٌّ بالليل ومذلة في النهار» و «الدين راية الله في الأرض فإذا أراد أن يذل عبداً وضعه في عنقه» وإذا كان لا بد من دين فيجب أداؤه حين الاستغناء فـ «مطل الغني ظلم» و «من أدان ديناً فأراد أن يوفيه أدَّاه الله عنه، ومن أراد أن يتلفه أتلفه الله». وأوجب توثيق الدين بالكتابة والشهود ﴿ياأيُّها الذَّيْنَ آمنوا إذا تَدايَنتُمْ بِدَينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكْتُبوهُ﴾[1].

وفرض حسن المعاملة وجعلها كأنها معظم أمور الدين فقال ﷺ: «الدين المعاملة» لذا نجد معظم ما يكتب في الفقه هو أبحاث المعاملات. هذا ما كان في الكسب والعمل.

---

(١) البقرة ٢٨٢.

أما الإنفاق فله أبوابه: فأولها الإنفاق على النفس والأهل دون إسراف لقوله تعالى: ﴿كُلوا واشرَبُوا وَلا تُسرِفوا إنَّهُ لا يُحبُّ المُسرفِين﴾[1]. ويثاب المرء على هذا الانفاق «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[2].

ثانيها: الزكاة ـ وهي فرض هام جداً كالصلاة لذلك قرنها الله سبحانه بالصلاة، وهي أن يخرج الإنسان قسماً من الربح قليل فيعطيه للفقير أو المسكين أو للجهاد في سبيل الله أو ما شابهه: وتؤخذ من الغني. وضمت إليها الصدقة وهي ما ينفق على المحتاجين زيادة عن مقدار الزكاة. وبالزكاة والصدقة اكتفى المحتاج واستفاد المجتمع واستقرت السيولة المالية وتداول النقد وحدثت المحبة والود بين طبقتي الشعب الغنية والفقيرة.

وأوجب الإسلام مواساة الأقرباء وإكرام الضيف فـ «الضيف يأكل رزقه ويرتحل بذنوب القوم»[3] وحض على الإنفاق في المرافق العامة والإحسان وفي وجوه الخير كافة، على أن يُبتغى في كل ذلك إرضاء الله وثوابه لا رياءً أو سمعة.

---

(١) الأعراف ٣١.
(٢) البخاري.
(٣) الأصبهاني.

الفصل التاسع

الحكم

كانت حكومات الأرض قبل الإسلام متشابهة. تتكون من ملوك أعطوا لأنفسهم صفات الألوهية، ومن شعوب كالغنم تخدم ملوكها وتقدم لها ما تريد من أموالٍ وأعراض وأرواح وذلك دون مقابل. فإن قتل الملك أحداً أو عذبه أو سجنه فهذا عدل، وإن أخذ مالاً فهذه ضريبة لازمةٌ، وإن غضب على فرد أو شعب أو دولة أخرى أشعل حرباً دمَّر فيها شعبه والشعب المغضوب عليه، وهكذا.

فلما جاء الإسلام قلب الأوضاع رأساً على عقب، فجعل الملك أميراً للمؤمنين يقيم شريعة الله ويخدم شعبه، ويتقرب إلى الله بحفظ الأمن وإقامة العدل ونصرة المظلوم وإطعام الفقير وتأمين الرفاهية للأمة. فإن لم يفعل وجار في الحكم حق للأمة أن تعزله وتولي غيره، وأما هو فقد باء بغضب من الله وحشر مع الكفار ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بما أنزل الله فأولئِكَ هُمُ الكافِرونَ**﴾[1].

وكان أول من حكم واستلم أمور المسلمين هو محمد

---

(١) المائدة ٤٤.

رسول الله ﷺ فقام بما فرض الله عليه فطبق أحكام الإسلام في الحكم على أكمل وجه. فسوَّى بينه وبين أفراد رعيته فـ «قد مرَّت إبل الصدقة على رسول الله ﷺ فأهوى بيده إلى وبرةٍ من جنب بعير فقال: ما أنا بأحق بهذه الوبرة من رجل من المسلمين»[1]. وكان يعلم الناس أمور دينهم ويربيهم وقال «إنما بعثت معلماً»[2]. وكان يقعد طيلة النهار يقضي بين الناس ويهديهم ويحل مشاكلهم ويتفقد أحوالهم بنفسه. حتى إذا كان حربٌ هيأ جنده واستشار وجهاءهم ثم قادهم وكان في المعركة في مقدمتهم حتى بلغ من الشجاعة أن قال فيه أشجع العرب علي بن أبي طالب «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به»[3] في المعركة. ولم يستفد من دنياه شيئاً وما شبع من خبز الشعير طيلة حياته وكم وضع حجراً على بطنه من الجوع. حتى إذا توفي (لم يترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشيء)[4].

هذه المثالية في الحكم جعلت من بعده كأبي بكر وعمر يسيران على نهجه. ومثال على ذلك: أن وقف عمر بن الخطاب يوم تولى الخلافة يخطب بين الناس و ان وارد حكومته (٢٠) ألف مليون دينار يقول عن معاشه (لقد أنزلت نفسي من مال الله منزلة وليِّ اليتيم إن احتجت أكلت

(١) احمد.

(٢) ابن ماجه.

(٣) أحمد.

(٤) مصابيح السنة.

بالمعروف وإن استغنيت عففت فلا آخذ شيئاً). وكان يخدم عجائز أهل المدينة فيملأ لهم الماء ويؤمن حوائجهم.

لذا كان الحكم في الإسلام عبئاً ثقيلاً ومخوفاً لقول رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة إمام جائر»[1]. كما أن الحاكم إن عدل وأقام شريعة الله كان: «إن أرفع الناس يوم القيامة إمام عادل»[2]. والحكم في الإسلام لا يكون بالوراثة ولا بالقوة أو المال والخداع بل بالانتخاب، فينتخب أفضل الناس وأتقاهم وأخلصهم وأكثرهم كفاءة بدون أن يسعى لها أو يطلبها لنفسه لقول رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[3].

وعلى الحاكم ﴿إذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاس أنْ تَحكموا بالعَدْلِ﴾[4] أي بشريعة الله فينصف المظلوم ويقتص من الظالم ويمنع الفساد. ويعتبر نفسه خادماً للمسلمين فـ «سيد القوم خادمهم»[5]. لذا لما وُلي سلمان الفارسي إمارة العراق، كان سائراً في الطريق فظنه أحد الناس حمالاً فطلب منه أن يحمل له متاعه فحمله سلمان. ولما رأى الرجل أن الناس يسلمون عليه بالإمارة قال له من الأمير أنا أم أنت؟ فقال سلمان بل أنا الأمير. فاعتذر إليه وأراد أن يأخذ متاعه فأبى سلمان

---

(١) أبويعلى.
(٢) أبوحنيفة.
(٣) البخاري.
(٤) النساء ٥٨.
(٥) أبو نعيم.

إلا أن يوصله إلى حيث أمر وقال: (إنما أنا خادم المسلمين).

ويحرم على الحاكم أن يحتجب عن رعيته فـ «من ولاه الله من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن حاجاتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله يوم القيامة عن حاجته وخلته وفقره»[1]. والحاكم يجب أن لا يخدع ولا يكذب ولا يغش فـ «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»[2] و«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب وعائل مستكبر»[3].

وعلى الحاكم أن يكون حازماً قوي الشخصية فـ «الإمام الضعيف عن الحق ملعون»[4] وعليه أن ينتقي أعوانه وموظفيه من أفضل ما بالأمة لأنه «من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[5]، فلا يولي أحداً لقرابته أو محبته أو لرشوةٍ أو لخاطر فـ «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه حرفاً ولا عدلاً»[6].

فـ «الإمام راع ومسؤول عن رعيته»[7]، وعليه أن لا يأخذ

---

(١) ابوداود.
(٢) البخاري.
(٣) مسلم.
(٤) أبويعلى.
(٥) الحاكم.
(٦) أحمد.
(٧) مسلم.

بالظن أو الشبهات أو الشكايات حتى يتثبت وذلك لقول الله عز وجل: ﴿ياأيها الَّذينَ آمَنوا إنْ جاءكُم فاسِقٌ بنبأٍ فتَبَيَّنوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فَعَلتُمْ نادِمينَ﴾ [1].

لذا فالحاكم المؤمن المستقيم كان خيراً كاملاً لأمته بل للناس كافة. فـ «إذا أراد الله بقومٍ خيراً ولَّى عليهم حلماءهم، وقضى بينهم علماؤهم، وجعل المال في سمحائهم. وإذا أراد بقوم شراً ولى عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهالهم، وجعل المال في بخلائهم»[2].

وقد علم رسول الله أن خراب الأمة سببه بالدرجة الأولى الحاكم السيء فقال عنه أحد أصحابه «سمعت رسول الله ﷺ يتخوف على أمته ست خصال: إمرة الصبيان، وكثرة الشرط، والرشوة في الحكم، وقطيعة الرحم، واستخفافاً بالدم، ونشوى يتخذون القرآن مزامير. يقدمون الرجل ليس بأفقههم ولا بأفضلهم يغنيهم غناءً»[3]. فالحكم السيء المبني على عدم الكفاءة وعلى القوة والهوى هو حكم خراب ونكد وشقاء.

بعد هذا فالحاكم المسلم المخلص يدني العلماء ويكرمهم ويحترمهم ويشاورهم ويستجيب لنصحهم، فخير الأمراء من كان بباب العلماء، وشر العلماء من كان بباب الأمراء.

---

(١) الحجرات ٦.

(٢) الديلمي.

(٣) أحمد.

الفصل العاشر

الأمة

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُم فاعْبُدونِ﴾[1]، لذا فالمسلمون أمة واحدة كما أن ربهم واحد ورسولهم واحد وكتابهم واحدٌ مهما تعددت الديار والشعوب.

لذلك فالفرقة والتقسيم والقبلية وتعدد الأمراء والملوك والحدود لا وجود لها في الإسلام. وكل ذلك ضار في الأمة وهو سبب الوهن والذل والخسران وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[2]، ونهى ربنا سبحانه عن التفرق فقال: ﴿وَلا تَكُونوا مِنَ المُشرِكيْنَ مِنَ الَّذينَ فرَّقوا دِينهُمْ وكانوا شيعاً﴾[3]، لذلك فالتفرقة من الذنوب الكبيرة وذلك لأن «يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار»[4].

فلما كان المسلمون أمة واحدة وحكومة واحدة ملكوا الدنيا فلما تفرقوا واختلفوا ضاعوا وأصبحوا مستعمرين ضعافاً ينالهم كل سوء في الدنيا ولهم عند ربهم حساب شديد.

---

(١) الانبياء ٩٢.
(٢) احمد.
(٣) الروم ٣١، ٣٢.
(٤) الترمذي.

لذلك أوجب الإسلام على المسلمين محاربة من أراد أن يفرق الأمة وحتى قتله. فـ «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان»[1]، «ومن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتةً جاهلية»[2]، «ومن قاتل تحت راية عمية أو يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتل فقتلته جاهلية»[3]، أي من ناصر لقبيلة أو دولة منشقة عن الإسلام فقتل فهو مع الكافرين في النار.

وفرض الإسلام على المسلمين حاكماً «أميراً أو خليفة أو ما شابهه» ينتخب ويبايع ويطاع والبيعة والانتخاب واجب على كل مسلم فـ «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية»[4]، فإن بايع أصبحت طاعته فرض عين عليه فـ «على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية. فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[5]. ولا فرق في الحاكم أن يكون عربياً أوغير عربي أبيض أو أسود ولو من أي بلد لقول رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا الله واسمعوا وأطيعوا وإن أمِّر عليكم عبد حبشي مجدَّع ما أقام فيكم كتاب الله عز وجل»[6].

وعلى الأمـة أن تحترم الحاكم المقسط فـ «من أهان

---

(١) مصابيح السنه.
(٢) مصابيح السنه.
(٣) النسائي.
(٤) مصابيح السنه.
(٥) مسلم.
(٦) أحمد والحاكم.

سلطان الله في الأرض أهانه الله»[1]. كما يطلب من العلماء أن ينصحوه ويبينوا له حكم الله في كل أمر مخالف لشريعة الله، ويكون ذلك سرًّا لا علانية فـ «من أراد أن ينصح السلطان فلا يبده علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به. فإن قبل فذاك، وإلا كان قد أدَّى الذي عليه»[2].

وطاعة السلطان العادل فرض عين كطاعة الله ورسوله **﴿يأيُّها الَّذيْن آمنوا أطِيعوا الله وَأطِيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُمْ﴾**[3] وطاعة السلطان عبادة يثاب المرء عليها. كما يجب أن لا يُغش السلطان ولا يكذب عليه ولا يخدع. ويحرم أن يمتنع عن معاونته، ففي كل ذلك عقوبة من الله صارمة كما تحرم مراءاته والوشاية إليه. وكما يجب على الأمة أن تدفع له الزكاة والصدقات وما يفرضه لمصلحة الأمة أو للجهاد وذلك عن صدقٍ وإخلاص ورضى.

من ذلك يتبين حرص الإسلام على التعاون والتناصح والمحبة والألفة بين الحاكم والمحكوم. ولا داعي لانقلاب أو ثورة أو تخريب.

---

(١) الترمذي.

(٢) أحمد.

(٣) النساء ٥٩.

الفصل الحادي عشر

القضاء

القضاء العادل أساس وركن من أركان الدولة إذ يتأمن به الأمن والسلام وحفظ الأرواح والأعراض والحقوق. والقضاء في الإسلام أساسه الحدود والنزاهة: أما الحدود فقد جعل الله لكل ذنب جزاءً في الدنيا يتناسب مع قدر الذنب وضرره، ينفذه الحاكم بعد أن يحكم به القاضي.

فمن هذه الحدود: القاتل عمداً بغير حق يقتل، والسارق للنصاب تقطع يده، ومتلف عضوٍ يتلف منه عضوٌ مثله، ويجلد الزاني وشارب الخمر ويقاصص على الجروح والخ. ومثال على ذلك قوله سبحانه **﴿وكَتبنا عَلَيهِمْ فِيها أنَّ النَّفس بالنَّفسِ، وَالعين بالعين وَالأنف بالأنْفِ، والأذن بالأذُن، وَالسِّنَ بالسِّنِ والجرُوح قِصاص﴾**[1]. وتنفيذ حدود الله رادعة حافظة للأمة مطمئنة ولا يقوم مقامها أي حدود أخرى، وضرورية جداً فقد قال رسول الله ﷺ: «حدٌّ يقام في الأرض خير للناس من أن يمطروا أربعين صباحاً»[2]. وقد نفذ المسلمون الأول وبعض من الدول الإسلامية هذه الحدود فلم يبق في مجتمعاتهم قاتل ولا سارق وعم الأمن والسلام.

---

(١) المائدة ٤٥.

(٢) النسائي.

وأما النزاهة فهي نزاهة القاضي مع علمه بالحدود وهو يؤمن بالله وبجبروته وبما أنزل الله سبحانه في سورة المائدة ﴿وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أنزَل الله فأولئكَ هُمُ الكافِرونَ﴾ وكذا ﴿الظَّالمونَ﴾ وكذا ﴿الفاسِقونَ﴾[1].

و «القضاة ثلاثة: فقاضيان في النار وقاضٍ في الجنة: فأما الذي في الجنةِ فرجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة. ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق فيقضي بين الناس على جهل فهو في النار»[2].

ويجب أن «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»[3] و «إذا جلس إليك الخصمان فلا تكلم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول»[4]، أي لا يحكم حتى يسمع من الخصمين. ويقضي القاضي بالبينة من المدعي فإن لم تكن بينة فاليمين على من أنكر ولولا ذلك «لو يعطى الناس بدعواهم لا ادعى رجال أموال الناس ودماءهم، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر»[5].

وفي البينة دلائل كثيرة أهمها الشهود العدول ويكفي لذلك شاهدان فإن لم يكن إلا شاهد واحد فيضاف إليه يمين المدعي.

---

(١) المائدة ٤٤.

(٢) أبوداود.

(٣) مسلم.

(٤) أحمد.

(٥) البيهقي.

وللشهادة أهميتها العظمى لذلك شدد الإسلام وعظم شأنها وجعل «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله»[1] لأنها تغمط الحق وتنصر الباطل وقد تؤدي للقتل وتضييع الحقوق.

واليمين على نية المستحلف أي على نية من رضي باليمين. ومن حلف كاذباً عوقب بالسجن في الدنيا والعذاب في الآخرة «إنما أقضي بالبينات والأيمان وبعضكم ألحن بحجته من بعض. فأيما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فإنما قطعت له به قطعة من نار»[2].

ولا ينبغي للقاضي أن يحكم بالظن، فإذا لم يتبين له الحق فليخلِّ سبيل المتهم كما يجب أن «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود»[3] وعلى كلٍ «إن الإمام لأن يخطىء بالعفو خير له من أن يخطىء بالعقوبة»[4].

وكذا على الحالف أن يصدق لأن اليمين الكاذب جزاؤه النار «من اقتطع حق امرىءٍ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار. فقالوا يا رسول الله! وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك»[5] أي السواك.

---

(١) مصابيح السنة.

(٢) الطوسي.

(٣) البيهقي.

(٤) الترمذي.

(٥) مسلم.

وحرم الله الرشوة في الحكم وذلك لتأمين سلامة القضاء و«الرشوة في الحكم كفر»[1].

وهكذا تأمن في الحكم الإسلامي الأمن والسلام والرخاء ﴿وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياة يا أولي الألباب لَعلكم تَتَّقون﴾[2].

(١) الطبراني.
(٢) البقرة ١٧٩.

الفصل الثاني عشر

الجهاد

فرض الله الجهاد لرفع كلمة الحق وتحرير الإنسان من عبودية الملوك والحجارة والأوهام والخرافات ولنصرة المظلوم وإقامة العدل ولدفع الباطل، وللدفاع عن العقيدة وعن النفس والعرض والبلاد والأموال. وحرَّم الاعتداء، ولم يطلب الإسلام إكراه الناس على اعتناق الإسلام ﴿**لا إكْراهَ في الدِّين**﴾[1]. كما لم يكن جهاد المسلم ليغتصب مالاً أو أرضاً أو عرضاً.

ولم يبدأ المسلمون بحرب أحد، بل كان حربهم لرد اعتداء مبيت أو مباشر ﴿**وقاتِلُوا في سبيلِ الله الذين يُقاتلونكمْ وَلا تَعْتدوا إنَّ الله لا يُحبُّ المُعْتدين**﴾[2]، بل كان قتالاً ضد الاضطرابات والفتن ﴿**وقاتلوهُم حتى لا تَكون فتْنة**﴾[3]، وحرم على المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً مهما كان الأمر لأنه «إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[4]، كما جعل عقوبة قتل المؤمن خلوداً في النار «لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبَّهم الله في النار»[5].

---

(١) البقرة ٢٥٦.
(٢) البقرة ١٩٠.
(٣) البقرة ١٩٣.
(٤) أبو داود.
(٥) الترمذي.

لذا حرر المسلمون أهل العراق وسوريا وشمال إفريقيا وجزيرة العرب (وكلهم كانوا عرباً ومستعمرين) من عبودية الفرس والرومان. ثم دعوا الناس بالحكمة والموعظة الحسنة لنبذ الأديان الضالة والفاسدة. ثم بعد ذلك لم يحاربوا إلا لردٍّ اعتداء.

والجهاد المشروع هو فرض عين على كل مسلم إذا كان اعتداء عليهم أو ظلم أو حيف ينالهم أو يخشى شر الأعداء، ويكون الجهاد بكل الوسائل بالنفس والأموال واللسان وسواها «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

ويبدأ الجهاد بجهاد النفس بالتوبة عن المعاصي والإقبال على الله بطاعته «المجاهد من جاهد نفسه لله». ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو كالقتال في سبيل الله، فإن قتل بسبب ذلك كان شهيداً «الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شهيد».

ثم يستعد المجاهدون قبل المعركة بالاتحاد وبالسلاح وخصوصاً وسائل الرمي بأنواعها «ألا إن القوة الرمي» ثم النية وهي أن ينوي المؤمن أن يقاتل امتثالاً لأمر الله وفي سبيل الله وأنه وهب نفسه وماله لله، ثم بإطاعة القائد ومعاملة إخوانه بالحسنى واجتناب الفساد، ونهى الإسلام عن القتال بقصد الغنيمة أو للفخر والرياء لأن في ذلك فشل في المعركة ولا ثواب بل عقاب من الله سبحانه.

ثم تأتي المرابطة وهي إعداد الجيش المنظم والاستعداد الكامل والمراقبة والصبر حتى يصدر الأمر بالقتال ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنوا اصْبروا وَصابِروا وَرابِطوا وَاتَّقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفلحون**﴾[1].

فإذا دخلتم المعركة و﴿**إذا لَقِيتُمْ فئةً فاثْبتوا وَاذْكروا الله لَعلَّكُمْ تُفلحُونَ**﴾[2]. وإياكم والفرار ﴿**وَمَنْ يُولِّهِمْ يَومئذٍ دُبُرهُ إلَّا مُتحرِّفاً لقِتالٍ أو مُتحيزاً إلى فِئةٍ فقَدْ بَاء بِغضبٍ مِنَ الله وَمأواهُ جَهنم**﴾[3] لأنَّ الفرار من القتال كالخروج من الإسلام لشدة ضرره وسوء عاقبته. هذا إلا إذا أمر القائد بالتراجع.

والمجاهد الصدوق شجاع لأبعد حدود الشجاعة لـ ﴿**إنَّ الله اشْترى من المؤمنين أنفُسهُمْ وَأمْوالهُمْ بأنَّ لَهمُ الجنَّةَ، يُقاتلونَ في سَبيل الله فيقْتلُون وَيقتلونَ وعداً عليه حَقاً في التَّوراةِ والإنْجيلِ والقُرآن**﴾[4]. فهو لا يهاب القتل لأنه كما قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة»[5] فلا ألم من القتل وهو واثق من النصر لأن الله معه ﴿**وَهُوَ معكُمْ أينما كُنتُمْ**﴾ حتى أنه يتمنى أن يقتل في سبيل الله لأنه «يعطى الشهيد ست خصالٍ عند أول قطرة من دمه: تكفر خطاياه، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور

---

(١) آل عمران ٢٠٠.
(٢) الانفال ٤٥.
(٣) الانفال ١٦.
(٤) التوبة ١١١.
(٥) الترمذي.

العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلَّى حُلة الإيمان»[1].

والمجاهد المخلص يكسب من المعركة إما الشهادة واما النصر ولا ثالث لهما: فإما أن ينتصر وهو يعلم أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء دون النظر إلى كثرة العدة أو العدد، وأن الله معه وهو أعظم قوةٍ في الوجود وقد وعده النصر ﴿وكان حَقاً عَلينا نَصرُ المؤمنين﴾[2] ولا يهتم بكثرة أو قلة العدد لـ ﴿إنْ يَكُن منكُمْ عِشرُونَ صابِرونَ يَغلبوا مئتين، وإنْ يَكُن مِنكُمْ مَائةٌ يَغلبُوا ألفاً مِنَ الَّذين كفروا﴾[3].

وإما أن يقتل ويصبح شهيداً والشهادة أرفع درجات الإسلام بعد النبوة والعلم. والجهاد ذروة الإسلام لا يناله إلا أفضلهم. و«يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»[4].

وقد أباح الإسلام خداع العدو فـ «الحرب خدعة»[5] والتجسس والكذب عليه إلا إذا عاهدناه فعندها يجب الوفاء بالعهد ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾[6].

وحرم الإسلام قتل النساء والشيوخ والأطفال والمنقطعين للعبادة في معابدهم وحرم قتل الجرحى والتمثيل بهم وبالقتلى «ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً

---

(١) البخاري.
(٢) الروم ٤٧.
(٣) الأنفال ٦٥.
(٤) أبوداود وأحمد.
(٥) البخاري.
(٦) النحل ٩١.

كبيراً»[1]، وأوصى بالأسارى خيراً وجعل إطعامهم وحسن معاملتهم من الدين ولهم جزء من الصدقات تنفق عليهم.

واعتبرالإسلام أن من جهز غازياً أو خلفه في أهله بخير له أجر المجاهد يقول ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله عزّ وجل فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا»[2]، وكذا كل من اشترك في تجهيز المقاتلين أو أعانهم له أجر المجاهدين «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر: صانعه والرامي به ومنبله»[3].

وحرَّم الإسلام التقاعس عن الجهاد ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أَلِيماً وَيَستبدِلْ قَوماً غَيرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شيئاً﴾[4] ويقع الضرر عليكم جميعاً «وما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[5] لأنه يستولي عليهم الذل والجبن ويطمع فيهم العدو كما رأينا ما حلَّ بالأندلس وفلسطين وبغداد يوم غزو التتر إذ أصبح التتري الواحد يذبح مائة من المسلمين واحداً بعد واحد دون أي مقاومة أو اعتراض حتى يقال (حط رأسك بين الروس وقل يا قطّاع الروس).

لذلك لما طبق المسلمون تعاليم الإسلام فتحوا العالم ودمَّروا عروش الظالمين والمستعمرين وحرروا الشعوب وقادوها

---

(١) أبوداود.
(٢) البخاري.
(٣) أبوداود.
(٤) التوبة ٣٩.
(٥) أبو داود.

إلى السعادة والأمن والرخاء التي لم يحلموا بها ولم يعرفوها، لذا قال الله فيهم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

وقال عنهم كوستاف لوبون مؤرخ الغرب الكبير (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب).

---

(١) آل عمران ١١٠.